التشكيل الصوري لرسول الشاعر في شعر الغزل الأموي

د. دلال هاشم كريم
جامعة تكريت / كلية التربية – سامراء
قسم اللغة العربية

توطئة :

إن الذي لفت الانتباه لدراسة هذا الموضوع هو امكانية بحثه بمحاور عدة ، على خلاف ما يُظن على أنه يسير باتجاه واحد لا غير ، وهو الدور الايجابي الذي يؤديه الرسول حينما يُرسل من الشاعر إلى المحبوبة أو العكس ، فالذي اتضح لدينا قبل مدة ليست بالقليلة – أثناء دراستي الدكتوراه – أنه يمكن لنا بعد استقراء النصوص الشعرية بحث الموضوع على محاور أربعة هي كالآتي :

١- الرسول بين الاستدلال اللغوي والاستدلال الاصطلاحي .
٢- أهمية الرسول في شعر الغزل الأموي .
٣- دور الرسول في عملية التراسل .
٤- التشكيل الصوري للرسول في شعر الغزل الأموي .

وكان انتقاء العصر الأموي مبنياً على ما شهده هذا العصر من تغيرات طالت الحياة بكل جوانبها ولاسيما الاجتماعية منها ، لذا استجاب شاعر الغزل لهذه المتغيرات فطوّع خطابه الشعري بما يلائم محيطه ، فجاء تشغيل المشهد الشعري في شعر الغزل خاضعاً للتطور الذي أصاب المجتمع الأموي ولاسيما في المدينة أكثر منها في البادية ، ومن ذلك ما يخص مسألة التراسل وإرسال الرسول من شاعر الغزل إلى المحبوبة أو بالعكس .

ومن الجدير بالذكر أننا ارتأينا أن نعنون البحث بـــ (التشكيل الصوري لرسول الشاعر في شعر الغزل الأموي) للابتعاد عن دلالة لفظة (الرسول) التي لها خصوصية في الخطاب فضلا على أن صيغة (الرسول) جاءت للتكريم من الله ﷻ .

أولا : المعنى اللغوي والاصطلاحي للرسول :

حينما نقلب في المظان اللغوية نعثر على المعنى اللغوي لكلمة (الرسول) قد جاءت كالآتي : ((والرسول معناه في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بَعثَه ؛ أُخذ من قولهم : جاءت الإبلُ رسلا : أي متتابعة ... وسمي الرسول رسولاً لأنه [ذُو رَسول] أي ذو رسالة ، والرسول اسمٌ من أَرسلْت، وكذلك الرسالة ... وجمعُ الرسالة الرسائل، وجمع الرَّسول الرُّسل . والرسول بمعنى الرسالة يؤنث ويُذكر فمن أنثّ جمَعه أَرسُلاً))[١] .

جاء في اللسان ((ويقال : هي رَسولُك . وتراسل القومُ : أرْسَل بعضهم إلى بعض . والرسول : الرِّسالة والمُرْسَل ... وقول الهذلي :

حُبَّا لغيرك ما اتاها اَرْسُلي

ذهب ابن جني إلى أنه كَسَّر رسولاً على أَرْسُل ، وان كان الرسول هنا إنما يُراد به المرأة لأنها غالب الأمر مما يُستَخْدَم في هذا الباب))[٢] .

أما المعنى الاصطلاحي لكلمة (الرسول) فقد جاء مقارباً للمعنى اللغوي بعد انزياحه من الابل المتتابعة إلى معنى اصطلاحي نعني به الذي أمره المرسِل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض ، والرسول يقال تارة للقول المحتمل ، وتارة لمحتمل القول، وفي الشريعة : إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام[٣] .

ثانياً : أهمية الرسول في شعر الغزل الأموي :

يقيناً ان حاجة شاعر الغزل الى الرسول تتأتى من رغبته الملحة في إدامة التواصل وإستمراره مع محبوبته ، إذ لابد من إيجاد حلقة وصل بينهما – الشاعر ومحبوبته – وهذه الحلقة هي الرسول الذي يتوسد فيه الشاعر لاحداث هذا التقارب ، لذا نراه باحثاً دؤوباً عمّن يستطيع انقاذه مما يعاني من لوعة الهجر ، كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

مَنْ رَسولي إلى الثُّرَيَّا بِأَنّي ضِقْتُ ذَرْعاً بهَجْرِها والكِتَابِ[٤]

وقوله :

مَنْ رَسولي إلى الثُّرَيَّا ، فَإنّي ضاقني الهَمُّ ، واعترتني الغمومُ[٥]

وقوله الذي يبين فيه بحثه عن الرسول الصادق في ايصال ما تكنه المحبوبة من حب له جلب لها الحزن والألم :

مَنْ رَسُولٌ ناصِحٌ ، يُخْبِرُنَا عَنْ مُحِبٍّ مُسْتَهامٍ قَدْ كَتَـــــمْ ؟
حُبَّهُ ، حَتَّى تَـبَلَّى جِسْمُــهُ ، وَبَراهُ طُولُ أَحْزان ، وَهَــــــــمْ[٦]

وقد تطلب المحبوبة هذا الرسول ليخبر الشاعر هل أراد الهجر والاجتناب، فيقول عمر بن أبي ربيعة :

مَنْ رَسُولٌ إليه يَعلَمُ حَقَّـــاً أَجمَعَ اليَومَ هِجرَةً واجتِنابا[٧]

ومن هذه التساؤلات الباحثة عمّن يكون رسولاً نُدرك الادراك كله ما للرسول من أهمية عند شاعر الغزل الأموي الذي لا يكف عن استعمال (مَنْ) وهي اسم استفهام للعاقل أي أنه أراد الرسول بذاته مؤكداً ارتياحه لوجود هذا الشخص المبلّغ معاناته الذاتية ، فالباحث بالتساؤل عن انسان دليل واضح عمّا له من أثر فاعل واحتياج قائم ، كما في قول مجنون ليلى :

فمَنْ مُبلغٌ عَنّي الحَبيبَ رِسَالةً بِأنَّ فؤادي دائـــــــمُ الخفَقــان
وأنّي مَمنُوعٌ مِن النومِ مُذنَـــفٌ وعَينَايَ مِن وجدِ الأسى تَكِفانِ[٨]

فشاعر الغزل يفصح عن حاجته إلى مواصلة التراسل مع المحبوبة ، وما له من أهمية كبيرة في اظهار التواصل في المودة وعدم الانقطاع والجفاء[٩] ، وما لهجر المحبوبة من أثر عليه[١٠] .

فالشاعر في أمس الحاجة الى التراسل ويترجى من المحبوبة أن تراسله لدرجة يتمنى فيها المرض لتحقيق ذلك ، إذ يقول كثير عزة :

يودُّ بأن يُمسي سقيماً لعلّها إذا سمعَت عنه شكوى تُراسلُه[١١]

إذ يستبشر شاعر الغزل بالرسول داعيا له بالخير والأمان ولاسيما إن أتى برسالة من المحبوبة تُشعره بالطمأنينة والسلام ، فيقول عمر بن أبي ربيعة :

ولقد قُلتُ ، يوم فَكَّةَ لما أرسلَت تَقرَأ السـلاَمَ عَلَينَا :

نِعَمُ اللهِ بالرَّسُولِ الذي أُر سِل ، والمُرسِلِ الرسالةَ ، عينا[١٢]

وكثيراً ما يورد شعراء الغزل في العصر الأموي ما لعملية التراسل من أهمية في نقل معاناته للمحبوبة[١٣] ، لدرجة اختلال الزمن عند الشاعر إذا لم يحض برسول من محبوبته فيكون اليوم كأنه أشهر ، إذ يقول جميل بثينة :

ويكون يومٌ لا أرى لكِ مُرسَلاً أو نلتقي فيه عليّ كأشهُر[١٤]

ويؤكد عمر بن أبي ربيعة هذه الأهمية بقصره تبادل الرسائل المستمر على محبوبته من دون الأخريات ، فليست كل النساء تستحق هذا التواصل ، إذ يقول :

لا تَظُنّي أنَّ التَّراسُلَ والبَذ لَ بِكُلِّ النساءِ عندي يَلِيقُ[١٥]

ويقدم الشاعر اغراءته للمحبوبة لاقناعها بالاستمرار في المراسلة ومن ذلك أنه قادر على تنفيذ ما تطلب منه مهما كان صعباً حتى لو كانت تسأله أثمن ما عنده وهي نفسه ، فيقول جميل بثينة :

لو أُرسلتِ تَستَهدِين نفسي أَتاكِ بها رسُولك في سَرَاحِ[١٦]

وإن أرادت يمينه ما عزها عليها ، فيقول :

فلو أَرسلت يوماً بثينة تَبتَغي يَميني ، ولو عَزَّت عَلَيَّ يميني

لأعطَيتها ما جاءَ يَبغي رسولُها وقلتُ لها بعد اليمين : سَلِيني[١٧]

والذي يبدو لنا مما تقدم من الشواهد الشعرية أن شاعر الغزل يحاول بكل امكانيته باذلا جهده للمحافظة على عملية التراسل قائمة بينه وبين المحبوبة ، فهو لا يحصل على هذا المرام إلا بشق الأنفس فيظهر ما للرسول من أهمية لأنه سبباً في الصفاء والود بين الشاعر ومحبوبته ، كما في قول جميل بثينة :

نصد إذا ما الناسُ بالقولِ أَكثروا علينا ، وتجري بالصفاءِ الرسائلُ

فإن غفل الواشون عُدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والتراسـلُ[١٨]

ودليل وصل بينهما ، فيقول :

لو كان في صدري كقَدر قُلامةٍ فَضلٌ وصلتكِ أو أَتتك رسائلي[١٩]

فأهمية الرسول مرهونة بما يحققه من وصل للشاعر ، فتزداد هذه الأهمية كلما كانت نتيجة التراسل ايجابية كان الوصل وهو كما يقول ابن حزم عنه : ((ومن وجوه العشق الوصلُ ، وهو حظٌ رفيع ، ومرتبة سريةٌ ، ودرجةٌ عالية ، وسعدٌ طالع . بل هو الحياة المجدَّدة ، والعيش السنيُّ ، والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة ... إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كدر فيه ، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأماني ، ومنتهى الأراجي))[٢٠] .

وبانقطاع هذا التراسل ينقطع الوصل ويزول التقارب ولا يحل إلا الجفاء والتباعد ، فيقول العرجي :

قَعَدتُ فَلَم أُرسِل ولا أَرسَلُوا هُمُ بشـــــيءٍ إلينا صَاح حَولاً مُجَرَّمَا

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظِرٌ : لِذَنبي جَفَوني ؟ أَم جَفَوني تَعَرُّما(٢١)

نستنتج مما ورد من شواهد شعرية سابقة أن للرسول أهمية كبرى في عملية التواصل بين الشاعر ومحبوبته ، بما يهيأه هذا الرسول من تبليغات ضرورية تنعش غرض الغزل بمغذيات اللقاء والتقارب والود والتصافي ، فنرى كثرة تساؤلات شاعر الغزل عمّن يستطيع أن يقوم بتأدية هذا الدور .

ثالثا : دور الرسول في عملية التراسل :

لعل استقراءً دقيقاً للنصوص الشعرية يضع أيدينا على تلمس حقيقة هذا الدور الذي يتجه بعدة اتجاهات : أولها إيصال أخبار المرسِل إلى المرسَل إليه والتوجه إما يكون من الشاعر للمحبوبة أو من المحبوبة إلى الشاعر ، والاتجاه الثاني كيفية الايصال إذ تنشطر إلى شطرين الأول يمكن تسميته الدور الايجابي القائم على الأخبار التي تُنقل بصدق ، والثاني الدور السلبي الذي يكون الكذب فيه حاضراً لسلب الصفاء والود بين الشاعر ومحبوبته ، ومن الاتجاهات الأُخر طريقة الارسال هل هي رسالة شفهية أم كتاب تحريري .

أ / ارسال الرسول من جهة الشاعر : في الغالب يعتمد شاعر الغزل على الشخصيات المقربة منه لارسالها إلى المحبوبة ، ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة الذي يبين فيه اختياره لجاريته لتكون رسولاً لمحبوبته :

لقد أَرسَلتُ جَاريتي وقُلتُ لها خُذي حَذرا
وقولي في مُلاطَفَة لزينب نَولّي عُمَـــــــر
فَهَزَّت رأسها عجباً وقالت من بِذا أمـــــرا
أهذا سِحرك النسوا نَ قَد خبرنني الخبـــــــرا
بَطِرت وهكذا الانسا نُ ذو بَطَرٍ إذا ظَفـــــرِا(٢٢)

أظهرت هذه الأبيات أموراً يمكن تلخيصها بما يأتي : إرسال رسولاً مقرباً من الشاعر وهي الجارية واستدلينا على قربها منه من الحوار الذي دار بين الاثنين ولاسيما في الابيات (فهزت رأسها ... أهذا سحرك ... بطرت وهكذا ...) ، والسبب الذي دعا الشاعر لاختيار هذه الجارية لاداء مهمة التراسل أنها كاتمة لاسراره مطيعة لأوامره وأقواله (وقولي في ملاطفة...) ، الرسالة كانت شفهية واتضح ذلك من استعمال الشاعر فعل الأمر (قولي) ، ويتبين قرب هذه الجارية أكثر حينما يصرح باسمها في قوله :

بعثتُ وليدتي سحرا وقلتُ لها خُذي حذرَك(٢٣)

والتصريح باسم الرسول ما هو إلا دليل على انتقائه بقصدية من دون غيره لما يؤديه من دور يضع عليه الشاعر جُلَّ آماله وأمانيه معتمداً عليه في تحقيقها ، إذ يصرح عمر باسم المرأة التي بعثها في قوله :

قالَت فَأَتت الذي أرسَلتَ جَارِيةً وهناً إلى الرَّكبِ تُدعَى أُمَّ سُفيانا(٢٤)

والذي يبدو لنا من الشواهد الشعرية أن شاعر المدينة له المجال الأوسع في ارسال الرسول ولاسيما إذا

كان من المترفين ويمتلك الجواري ، فعمر بن أبي ربيعة يتكأ على هذا الجانب في الارسال ولاسيما إذا ما عرفنا أن المرأة أقدر على نقل المشاعر والاحاسيس إلى المحبوبة لانها تستطيع أن تؤثر عليها ؛ وذلك لأن المرأة تعرف كيف تحس المرأة الأخرى ، لذا تعلق عمر بدور المرأة المرسلة وحزم امره على ارسالها بالرسائل التي في الغالب ما تكون شفهية ليترك أمر الملاطفة في الكلام والتحايل للجارية التي يرسلها فهي أقدر منه في هذا الأمر ، وبذلك يتضح ما للرسول من دور في انضاج عملية التراسل ، فعمر ما زال متكأ على الجارية في تنفيذ أوامره ، فيقول :

فَبَعَثتُ جَارِيتي ، فَقُلتُ لها : اذهَبي فاشكِي إليها ما عَلِمتِ وسلّمي
قُولي ، يَقُول : تَحوَّبي في عاشقٍ كَلِفٍ بكم حتى الممات مُتيَّـــمِ[٢٥]

وقد يرسل شاعر الغزل الجارة لتخبر محبوبته بما يريد إيصاله كما في قول قيس بن ذريح :

ولو أَبلغتها جارةٌ قولي اســـلمي بكت جَزعاً وارفَضَّ منها دموعها
وبانَ الذي تخفي من الوجد في الحَشا إذا جاءَها عني حديثٌ يَرُوعها[٢٦]

ومن الذين يختارهم الشاعر ويحسُّ بقربهم منه أخلاءه ، كما في قول نصيب ابن رباح الذي حمّل خليله رسالة شفهية :

خليلي من كعب ألما هديتمـــا بزينب لا تفقدكما أبدا كعـــــــبُ
من اليوم زوراها فان ركابـــا غداة غد عنها دعـــــا أهلها نُكبُ
وقولا لها يا أمَّ عثمان خُلـــي اسلِم لنا في حبّنا انت أم حـــــربُ
وقولا لها ما في البعاد لذي الهوى بعاد وما فيه لصدع النوى شعبُ[٢٧]

وقوله أيضاً :

خليلي زورا العامرية فانظـرا أيبقى لديها الودُّ أم يتقضبُ
وقولا لها ان يعتزلك فلا قلـــــى ولكنه عن رقبة يتجنـــــبُ[٢٨]

ومن اللافت للنظر أن شاعر الغزل قد لا يلجأ إلى الانسان لحمل رسالته ونقلها فينادي طائراً محلقاً في السماء لحمل هذه الرسالة كما في قول مجنون ليلى :

ألاَ أيُّها الطَّيرُ المُحَلّقُ غَادِيَا تَحَـمَّل سَلاَمي لا تَذَرني مُنَادِيا
تَحَمَّل هَداكَ الله مني رسالةً إلى بلدٍ إن كُنتَ بالأرضِ هادِيا[٢٩]

وقد يجعل الشاعر اللحظ رسولاً بينه وبين المحبوبة ليكشف ما في نفسه ويبوح بما يعانيه ، إذ يقول جميل بثينة :

ولكن جعلتُ اللحظ بيني وبينها رسولاً فأدّى ما تُجِنُّ الضمائرُ[٣٠]

أما الاتجاه الآخر الذي يتمحور فيه دور الرسول فهو إرساله من جهة المحبوبة إلى الشاعر ، ويتخذ هذا الدور عدة نواحي ، فأما أن يكون دوره إخبار الشاعر بمعاتبة المحبوبة له[٣١] ، كما في قول عمر بن أبي

ربيعة :

قالت لجاريةٍ لها قولي لَهُ منّي مَقالَةَ عاتبٍ لم يُعتبِ[٣٢]

أو ترسل المحبوبة رسالة لتبليغ الشاعر بموعد لقائهما[٣٣] ، كما في قول عمر ابن أبي ربيعة :

ثم قالَت ، وهيَ تُذري دَمعَ عَينَيها سُـــــجوما
للثرَيّا : قـــد أبى هــ ـذا المُعَنّى أن يـــــدوما
أخبِريهِ بالذي ألـــــــ ـقى ، فإن كـــان مُقيماً ،
فَليَعدنا مَوعِـــــــداً لا نَتَّقي فيه نَمـــــــوما
وليكُن ذاك إذا ما آنَـــــ ـتَصَفَ الليلُ بَهـــيما[٣٤]

وقوله :

قالت لنائلَةَ اذهبي قولي لـــــهُ إن كان أجمع رِحلَةً أصحابُـــهُ
فليبق بعدهُمُ لدينا ليلـــــــةً فَلَهُ عليَّ بأن يُجَادَ ثوابُـــــــهُ
قلتُ اذهبي قولي لها قد طالَ ما حُبِسَت لديك على الكلال ركابُهُ[٣٥]

والذي يبدو لنا من هذه الابيات ان المحبوبة قد اختارت رسلا وحددت اسماءهم وهذا دليل على انها تطلب لهذا الامر من تثق به وعلى معرفة وثيقة بأمانته وهي من تطلب لقاء الشاعر وتحدد الموعد لهذا اللقاء لأنها أدرى بظروف من حولها من الرقباء والوشاة وتكون أكثر حذراً في هذه المسألة خوفاً على سمعتها وسمعة أهلها ، حتى أن كثير يطلب من عزة أن ترسل رسولاً توكله أمر ضرب الموعد ، فيقول :

وقلتُ لها يا عزَّ أرسل صاحبي على نأي دارٍ والرسولُ موكَّلُ
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً وأن تأمريني بالذي فيه أفعَلُ[٣٦]

فضلاً عن أن الموعد الذي تختاره لا يكون إلا في الليل لأنه أستر ويحافظ على سمعتها ، إذ يقول مجنون ليلى :

وقد أرسلَت ليلى إليَّ رسُـــولَها بأن آتنا سرًّا إذا اللَّيل أظلَمـــــا
فَجِئتُ عَلَى خَوفٍ وكُنتُ مُعَوّذاً أُحاذِرُ أيقاظاً عُدَاةً ونُوَّمَـــــا
فَبِتُّ وباتَت لم نَهُمَّ بريبـــــةٍ ولم نجترح يا صاحِ واللهِ محرما[٣٧]

ومثل هذه الظاهرة الاجتماعية في لقاء الشاعر صاحبته التي لا تتحرج من إرسال الرسول إليه طالبة منه القدوم ، يشترك فيها شعراء الغزل عامة سواء أعذرياً كان غزلهم أم حسياً صريحاً ، إلا أنه هناك بعض الاختلاف في مغزى هذه اللقاءات منها أن شاعر الغزل العذري يرغب في هذه اللقاءات لأنه يعاني آلام الاشتياق فيروم الرؤية لا غير مؤكداً أن لقاءه بريء لا يغريه بارتكاب الاثم وإن كان ليلاً استتر به من عيون الرقباء ، وغاب عنه الحراس . أما شاعر الغزل الصريح فهو يتباهى بما يناله من المحبوبة كما هو حال عمر بن أبي ربيعة الذي يصف لنا ما حدث في لقائه :

ثم قالَت ، وهيَ تـــــُذري ... دَمعَ عَينَيها سُـــــــجوما
للثرَيّا : قد أبى هـــــــــ ... ـــذا المُعَنّى أن يدومـــــا
أخبريه بالذي ألـــــــــــ ... ـــــــقى ، فإن كان مُقيماً ،
فَليَعدنا مَوعـــــــــداً لا ... نَتَّقي فيه نَمـــــــــــوما
وليكُن ذاك إذا ما آنـــــ ... ـتَصَفَ الليلُ بَهـــــــيما
بَرَزت بيـــــــــن ثلاث ... كالمها تقرُو الصَّريمـــــا
قمرٌ ، بَـــــدرٌ ، تَبَدَى ... باهراً يُعشي النجـــــــوما
قلتُ : أهلاً بكُم ، مِن ... زُوَّرٍ زُرنَ كريـــــــــما
فأذَاقَتني لذيـــــــذاً ، ... خلتُهُ رَاحاً ختيـــــــــما
شـــــابَهُ شَهدٌ وثلجٌ ... نَقَعا قَلباً كَليـــــــــما
ثم أبدَت، إذ سَلبتُ الـــ ... ـــمرطَ، مُبَيّضاً هَضيمـــا
فلهَونا اللَّيلَ حتَّـــــى ... هَجَمَ الصُّبحُ هُجومـــــا
قُلنَ : قد نادى المنادي ... وبدا الصُّبحُ فـــــــقوما
قُمنَ يُزجَيـــــنَ غزالاً ... فاترَ الطـــــرفِ ، رَخيما
ولَقد قضيـــــتُ حاجا ... تي ، ولاقيـــتُ النعيما[٣٨]

وقد أظهرت هذه الابيات صراحة عمر بن أبي ربيعة في بيان مراده من هذه اللقاءات ، وإن كان رأي أحد الباحثين المحدثين في هذه اللقاءات التي يقوم بها عمر ابن ابي ربيعة أن ((هذه اللقاءات لا تزيد عن كونها لهواً اجتماعياً ، تريد به هؤلاء النسوة أن يلقين هذا الشاعر المشهور ، الذي يتحدث عنه الناس في مجتمعهن ، وأن يخلقن صلة بينهن وبينه ، ليتحدث عنهن في أشعاره ، فهن سعيدات بهذا اللقاء ، والشاعر سعيد أيضاً به ، يتحدث عنه في شعره ، مُدِلاّ على أقرانه من الشباب ، الذين لا يتاح لهم ما أُتيح له . وقد تمضي التجربة على هذا النحو ، منتهية بهذه النهاية ، إذ ينفض المجلس ، ويعود عمر وصحبته من طريق ، وتعود هند وأترابها من طريق ، ويخرجن من هذا اللقاء بمتعة اللقاء ، وبأمل في مثله ، قد يتحقق أو لا يتحقق ، ويخرج الشاعر منه بهذه التجربة الفنية ، ويرضي بها هوى الفن ، ويرضى عنها أهل بيئته حين يسمعونها إنشاداً ، أو يستمعون إليها غناء))[٣٩] .

وقد عمم الباحث هذا الرأي على اللقاءات كلها التي ذكرها عمر بن أبي ربيعة في شعره ، واعتقد انه ابتعد قليلاً عن الدقة العلمية ؛ وذلك لو أننا قرأنا الأبيات السابقة الذكر وأمعنا النظر فيها لما وافقناه على رأيه ، وقد يكون ما قاله عمر في هذه الأبيات من المخيلة ولم يحدث في الواقع أو قد حدث فعلاً وهذا الأمر ومتابعته لا يهمنا قدر عنايتنا بإيضاح مسألة أن الشاعر العذري الذي في الغالب يسكن البادية لا زال متمسكاً بتقاليد مجتمعه وأعرافه ، ومحافظاً على عفة غزله خوفاً على سمعة محبوبته من التشهير ،

أما شاعر الغزل الصريح فقد أثر مجتمعه المدني المتطور على غزله فلا يكتفي بالخروج من هذه اللقاءات بالحديث فقط وإنما يحاول أن ينال حاجته من اللهو والمتعة غير آبهٍ بما قد يحدث لسمعة هذه الفتاة ، وقد يلتقي شعراء الغزل الصريح بهذه الصور الغزلية ، فتبرز لنا الملامح ذاتها في شعرهم(٤٠) .

ومن الجدير بالذكر إن الاثنين – شاعر الغزل العذري وشاعر الغزل الصريح– يلتقون في نقطة تعد اثارتها مهمة ، وهي أن هذه اللقاءات لا تتم إلا في الليل لانهما يستتران به من عيون الرقباء والحراس والأهل فضلاً عن توخي الشاعر الحذر عند ملاقاة المحبوبة وإن دل هذا الأمر فانه لا يدل إلا على الخوف من المجتمع سواء أمدنياً متطوراً كان أم بدوياً متحفظاً ، فالأمر سيان عند شعراء الغزل الأموي إذ أنهم يذعنون في ذلك إلى التقاليد الصارمة التي فرضها المجتمع ويخضعون لعاداتهم كل الخضوع ، وهذا واضح من اختيارهم الليل وقتاً للقاء المحبوبة وحذرهم الشديد في اختيار الرسول المناسب لهذه المهمة بأن يكون كتوماً ، كما يظهر ذلك في قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

قالَت لمولاتها : اذهبي فسلي إن كان قبل الرَّوَاحِ مُنطَلِقا
هَل يأتينا الفتى نُعاتِبُـــــهُ ولو أتانا الرَّواحَ ما خرِقا
لما أتاني الرسولُ مُكتتِما أقبلت أمشي والنجم قد خَفقا(٤١)

وقول العرجي :

ولا يكون الرسول حذراً فحسب بل يطلب من الشاعر أن يكون أكثر حذراً ، كما في قوله :

يَومَ يقولُ الرسولُ : قد أذِنَت فأتِ على غير رقبةٍ فَلِــج
أَقبلتُ أمشي إلى رحالهـــم في نَفحَةٍ نحو ريحها الأرِجِ(٤٢)

وقد اختلط في هذه اللقاءات الواقع المتحضر مع الواقع المتحفظ فأفرز لنا مراعاة لقيم المجتمع المتحضر المحافظ معاً مع رعاية لحق الهوى من ناحية أخرى .

وقد يأتي الرسول ناصحاً للشاعر(٤٣) ، محذراً مما هيأ له ، فيقول العرجي :

لقد أرسلَت ليلى رسولاً : بأَن أَقِم ولا تَقرَبنَّا ، فالتَجَنُّبُ أَمثَلُ
لعلَّ العيون الرامقاتِ لِـــــوُدِّنا تُكذِّبُ عنَّا ، أو تنامُ فَتَغفَلُ(٤٤)

وقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

أَتَانا رَسولٌ من رُقَيَّةَ ناصِحٌ بأنّ قَطِينَ اللهِ بَعدكَ سُيِّرَا(٤٥)

ومن الواضح أنه لو كان دور الرسول دوراً تحذيرياً فإن الشاعر يستعمل الفعل (دست) فضلا عن ما اعتدنا عليه من استعمال (ارسلت وبعثت) ، ((والبعث في كلام العرب على وجهين احدهما الارسال))(٤٦) ، ذلك لأن الفعل دسّ يعني ((دس الشيء في التراب ، وكل شيء أخفيته تحت شيء فقد دسسته... وهذا دسيس قومه : لمن يبعثونه سرّاً ليأتيهم بالاخبار))(٤٧) ، ولأن الأمر يحتاج إلى الاخفاء لأنه يتطلب الحذر والحيطة فقد استعمل شاعر الغزل في هذا الموضع الفعل (دست) ، كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

دَسَّت إلي رَسُولاً لا تكُـــــــن فَرِقاً واحذر وقيت أمرُ الحازِمِ الحذَرُ
إني سمعتُ رجالاً من ذوي رحمي هُمُ العدُوُّ بظهر الغيبِ قد نذروا
أنْ يقتلوك وقاك القتـــــــل قادرُهُ والله جارُك مما أجمع النفرُ[٤٨]

وقوله ايضاً :

قالت أردت بذا عمدا فضيحتنا وصرم حبلي وتحقيق الذي ذكروا
هلاّ دسستَ رسولاً منك يُعلمني ولم تعجل إلى أن يسقط القمرُ[٤٩]

وقول يزيد بن الطثرية :

ودسَّت رسولاً أنّ حولي عصابةً هُمُ الحربُ فاستَبطن سلاحَ المقاتل[٥٠]

وقد يأتي الرسول برسالة لوم وعتب من المحبوبة وهذا دور آخر يقوم به الرسول[٥١] ، كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

لقد أَرسلَت في السِّرِّ ليلى تَلومني وتزعُمني ذاملة طَرفاً جَلـــــــــدا
تقولُ لقد أَخلفتَنا ما وعدتنـــــا وباللهِ ما أخلفتُها طائعاً وعـــــدا
فَقُلتُ مُروعاً للرسولِ الذي أتـــى تراهُ لكِ الويلاتُ من أمـــــــــرِها جدَّا
إذا جئتها فاقرَ السلامَ وقُل لهـــا ذَري الجورَ ليلى واسلكي منهجاً قَصدَا[٥٢]

ومثل هذه الرسائل تكون مزعجة ومروعة للشاعر فلا يرحب بها ولا يُسعد لوصول مثل هذا الرسول الذي يؤدي هنا دوراً سلبياً مخالفاً لما قام به من دور ايجابي كما في الأمثلة الشعرية السابقة ، إذ يأتي الرسول بنبأ غير سار ، فيكون بذلك غير مرغوب في وصوله[٥٣] ، كما في قول عمر بن ابي ربيعة :

مكَثَ الرسولُ لديكم ،حتى إذا قَدِمَ الرسولُ ، وليتهُ لم يَقْـــــــدمِ
لم يأتني لكم بِخطٍّ واحـــدٍ يشفي غليلَ فؤادي المُتَقَسِّـــــــــــــمِ
وحرمتني ردَّ السلام ، وما أرى رَدَّ السلامِ ، على الكريم ، بمَحرَم
إن كنتِ عاتبةً عليَّ ، فأهلُ ما أن تعتِبي فيما عتبتِ وتُكرمـــــــي[٥٤]

ومن اللافت للنظر ان ينقل الرسول كلام زور لم يتفوه به الشاعر[٥٥] ، والواضح لدينا أن دوره السلبي في عملية الارسال يذكره الشاعر مبيناً ما يسببه هذا الرسول من تأثير على موقف هذا المحبوبة ، إذ يقول عمر بن أبي ربيعة :

أن أَتَى منها رسولٌ مَوهِناً وجَدَ الحيِّ نياماً فانقلبَ
ضرَبَ البابَ فَلَم يَشعُر بهِ أحَدٌ يَفتَحُ عَنهُ إذ ضَرَبْ
فأتاها بحديثٍ غاظهـــــا شَبَّهَ القولَ عليها وكَذَبْ[٥٦]

ومثل هذا السعي في الكذب وتخريب الود والصفاء بين الشاعر ومحبوبته يُسيّر دور الرسول باتجاه سلبي ليس فقط مؤثراً على المحبوبة بل وحتى على الشاعر نفسه ، كما هو واضح في قول عمر بن أبي ربيعة

:

قالت : لقد كَذبَ الرسولُ ، فَقَدتُهُ أَبقَولِ زورٍ يَرتَجي إحســـانا
كذَبَ الرسولُ فَسَل مَعَادَهُ ، هكذا كانَ الحديثُ ، ولا تكُن عجلانا
بل جاءني فقرأتُهُ مُتهلـــــلاً وَجهي ، وبعد تهلُّلٍ أبكـــانا
قَد قُلتُ ، حين رأيتُهُ : لو أنـــه يا بِشرَ منه سوى نصــيرةَ جانا
أرسلتَ أكذَبَ من مَشى وأنمه ، مَن ليس يكتمُ سِرَّنا أعـــدانا[٥٧]

نخلص مما تقدم أن للرسول دورين هما الدور الايجابي والدور السلبي وأنه يرسل من جهة الشاعر إلى المحبوبة أو بالعكس ، أو يتراسلان بإرسال رسول واحد بينهما ، كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

قالَ الجَريّ قد أومضت قُلتُ ائتها واحذر حويذ مقالها أن يُعرضا
قالت له باللهِ رَبَّكَ قُل لـــــــهُ قولاً تُحرّكُهُ عسى أن يَمعضــا
حَمَّلتَها وجداً لو أمسى مِثلُـــــهُ يَوماً على جَبَلٍ إذا لَتَقضقَضا[٥٨]

والذي يبدو لنا من هذه المراسلات التي تعتمد على رسول واحد يدور بين الشاعر ومحبوبته أن شاعر الغزل قد اتخذ جانب البنية السردية[٥٩] ، ليستطيع أن يُفرغ فيها كل ما لديه من انفعالات وجدانية ويأطرها بإطار السرد لإنجاح تجربته الشعرية ، ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة :

وقالت لأُختيها : اذهبا ، في حفيظةٍ فزورا أبا الخطَّابِ سِرّاً ، وسلّما
وقولا له : واللهِ ما الماءُ للصّــدى بأشهى إلينا من لقائكَ ، فاعلَمَا
وقولا له : ما شاعَ قولُ مُحَـــرِّشٍ لديَّ ، ولا رَامَ الرضا ، أو ترَغَّما
وقولا له : إن تجن ذنباً أَعـــــدُّهُ من العُرف إن رامَ الوشاةُ التكلما
فقلتُ : اذهبا قولا لها أنتِ همُّـــــهُ وكبرُ مُناهُ ، من فصيحٍ واعجما[٦٠]

رابعاً : التشكيل الصوري للرسول في شعر الغزل الأموي :

يجنح شاعر الغزل الأموي بخطابه الشعري إلى التشكيل الصوري لبيان أهم الصفات التي أتسم بها الرسول في شعر الغزل , فهو حريص كل الحرص على أظهار شخصية الرسول لما لها من أثر فاعل في عملية التراسل , فيقترب الرسول من أذهان المتلقين حاملاً صورة متكاملة يستقبلها المتلقي فتثير فيه نظير ما أثارت في منتج الصورة الذي يكون متأنياً في اختيار الرسول سواء كان هو المرسل أم المحبوبة , فيصور لنا هذه الشخصية تصويراً حسياً قائماً على الصورة الحسية لا سيما البصرية والسمعية منها , كما في قول العرجي :

فلما براني الهمَّ والحزنُ حقبةً وأشفقتُ من خَوْفِ الذي كُنتُ آملُ
وأبصرتُ دهراً لا يقومُ لأهلهِ على ما أصبوا فاسدٌ يتحـــــولُ
توكلتُ واستحدثتُ رأياً مباركا وأحزمُ هذا الناس من يتوكـــلُ
وضمّنْتُ حاجاتي إليها رفيقةً بها طبَّـــةً ميمونةً حين تُرْسـلُ

من البربريات اللواتي وجوهُها ... بكلِّ فعَالٍ صالحٍ تتهـــــــــلُ
وزيرٌ لها إبليس في كُلِّ حاجة ... لها عِندما تهْوي لهُ يتمثـــــلُ
رآها نعمَ الخدين , فلم يـــــزلْ ... لحاجاتها – ما لـــم تحُلْ – يَتحمَّلُ
تَخف لما نهوى مراراً , وإنها ... عن اشياء ليْستْ من هوانا ستثْقُلُ
فقالتْ: فلا تعجلْ, كفتيك مرحباً ... وللسِّر عندي فاعلـــمن ذلك مَحْمِلُ
تغشيتْ ثياب الليل , ثُم تأطرتْ ... كـــما اهتز عرقٌ منْ قنـــــاً مُتـــدلدلُ
فجاءتْ نواراً طالما قد تعللـــت ... من الوحشِ , ما يســـطيعُها المتحيَّلُ
بدتها بقبولِ ليّنٍ , وتمـــــثلتْ ... مـــــن الشّعرِ ما يرقي بـــــهِ المُتمثِلُ
فما كانَ إلا فَرْطَ خمس حَسِيْتُهُ ... من الدهـــــــر , حتى جاءَ – لا يتـــعلَّلُ
بشيرٌ, بأنا : قد أتينا, فهل لـــنا ... من الخوخة الصغرى سوى الباب مَدْخَلُ
فإن ببابِ الدارِ عينا , وإن تَزُغْ ... حِذَاراً لتلك العيـــــنِ أهْيَا وأمثـــلُ[٦١]

والذي يبدو من قراءة معمقة لهذه الأبيات أن الشاعر قد أسلم خطابه الشعري إلى الاطناب ليرسم صورة متكاملة للرسول الذي بعثه للمحبوبة ومن هذا التأني والتطويل في التصوير تصل الينا معلومات دقيقة جداً عن شخصية المبعوث , فأولاً عرفنا أنها إمرأة وليست رجل وهذا الأمر نجده عند أغلب شعراء الغزل الذين يفضلون اختيار المرأة لتقويم بهذا الدور لما لها من قدرة وإمكانية التأثير في المحبوبة , فالمرأة تعرف كيفية التحدث مع جنسها أكثر من الأخر الذي قد يخفق في انجاح هذه المهمة , ومن ثم نستشف من خلال صورة بصرية رسمها الشاعر أن المبعوثة هي من الأقوام البربرية الأفريقية والاختيار المنتقى لواحدة من النساء البربريات اللاتي اتسمن بالترفق في عرض حاجتهن وحاذقات بصنعتهن فضلاً على وجههن الذي يدل على صلاح أفعالهن بالتأكيد له أسبابه فالذي يبدو ان هذه الفئة من النسوة لهن القدرة في استجلاب المنبهات الاسلوبية في حديثهن وبذلك قد ساند الشاعر صورته البصرية بصورة سمعية حينما يسترسل ببث الصفات لهذه الشخصية فيقول عنها وزيرة إبليس أي أنها تمتلك ما يمتلكه إبليس من تأثير على الآخرين بوسوسته فهي أيضاً تمتلك الآخرين بحسن حديثها الذي زاد جمالية حينما اضفت عليه ما حفظت من شعر استطاعت به ان تسيطر على المحبوبة كما يسيطر السحر على المسحور وأي سحر فهو مناط بالحاذق الفهم (بدتها بقول لين ....) , واللافت للنظر ان الشاعر قد مازج بين الصورة البصرية والصورة السمعية مرتكزاً عليهما الاثنان ليخرج بنتيجة مرضية وهو يصف هذه البربرية بلبسها ثياب الليل وتهتز بمشيتها كما يهتز العذق من النخل اللين المرن فتترأى أمام أعيننا امرأة أنسب ما تكون في إنجاح عملية الارسال ولا سيما أنها مرسلة إلى امرأة نوار نفور من الرجال تحتاج إلى جهد ومجهود كبير لإقناعها وإذا بها (المبعوثة) تحقق نجاحاً باهراً مؤكداً ذلك الشاعر حينما يأته البشير بخبر طالما أنتظره , إذن انتجت الذات المبدعة مشهداً تصويراً (الصورة البصرية + الصورة السمعية) أثار نشاطاً تخيلياً (

صفات المرسَلة) وأفرز تشغيلاً خطابياً اعتمل في ذهن المتلقي الذي خطى مع الأبيات فاستحصل على فكرة متكاملة تترسخ في :

١. الاختيار الصحيح للرسول من خلال عرض الصفات بصورة بصرية وسمعية أنتج مرسَلة قادرة على رفع عملية الارسال إلى قمة النجاح .

٢. الأسباب التي دعت الشاعر إلى التوصل إلى هذا الاختيار بصعوبة أن المرسَل اليها نوّار صعبة الانقياد .

٣. الحصول على نتيجة مرضية لكل أطراف عملية الإرسال المكونة من الشاعر والمرسَلة والمحبوبة حينما هلَّ البشير بأخباره السارة إلى الشاعر .

ومن اللافت أن شاعر الغزل الأموي يركز على الفعل (بعث) حينما يريد سرد صفات الرسول ولملمتها في تشكيل صوري , كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

فبعثاً طَبَّةً مُحتالـــــــةً تَمزُجُ الجدَّ مِراراً باللَّعِـــــــــبْ
ترفعُ الصوتَ إذا لانت لها وتُراخي عند سَـــــورات الغضبْ
وهي إذ ذاك عليها مئــزر ولها بيتٌ جـــوارٌ من لُعـــــــبْ
لم تزل تصرفها عن رأيها وتـــــأناها بِرفـــــــق وأدب[٦٢]

والشاعر إذ يختار المرسَلة بهذه الصفات ما هو إلا دليل على حاجته الفعلية إلى مثل هذه المرأة لتذهب إلى المحبوبة التي اغتاضت وثارت ثأرتها لأنها سمعت قول الوشاة[٦٣] , فأسس مشهداً تصويرياً ليدعم موقفه , فقد أسند على نمط صوري أتاح له المجال لتشغيل عنصر الحركة من خلال صورة سمعية بادية في صوت المرسلة التي تتحكم به عند الضرورة , فضلاً عن مزاجها الجد بالهزل للتوصل إلى نتيجة وهي إرجاع المحبوبة عن رأيها برفق المحتال الحاذق , وأنما شدَّ الشاعر على مجال الحاسة السمعية ليراهن عليها أنها الحاسة الاكثر تأثيراً ووصولاً إلى غايته في المصالحة مع المحبوبة .

ولا زال الفعل (بعث) هو المتصدر في مثل هذه الابيات لِما لهذا الفعل من دلالة لغوية تناسب الموضوع الذي يطرحه الشاعر ، فهو يأتي بمعنى الاثارة[٦٤] ، ونقصد بالملاءمة الحادثة بين الدلالة اللغوية ومقصدية الابيات هو ما يثيره الشاعر من اثارة لرغبة المتلقي وشده إلى خطابه الشعري من خلال ما يسرده من صفات خاصة بالرسول ، كما في قول العرجي:

بعثنَ رَسولاً كتوماً لمَا أرَدنَ إذا ما الرســـــــولُ أذاعا
إليَّ بأن إتينا واحذرن وقاكَ الردى , أهلنا والشناعا[٦٥]

وقوله :

حُورٌ بَعَثنَ رَسولاً في مُلاطفةٍ ثَقفاً إذا أسقط النَّسَّاءَةُ الوهـــــمُ
إلي أن إتينا هُدءًا إذا اغفلَت أحراسُناً إفتضحنا إن هُمُ عَلِمُوا[٦٦]

والتركيز على انتقاء الرسول بمثل هذه الصفات أمرٌ ضروري ومهم اعتنى به شاعر الغزل الأموي إذ لا بد من أن ينماز الرسول بالكتمان وحسن التخلص عند النسيان أو أي أمر يقع فيه , كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

وبعثتُ كاتمةَ الحديـــ ـــــث رفيقةً بخطابها
وحشيَّةً إنســـــيَّةً خرَّاجـــــــةً من بابها
فرقت فَسَّهلت المـــعا رِضَ من سبـــيلِ نقابِها[٦٧]

وقد خدمت الصورة الشعرية الشاعر في اظهار ما يريده من صفات للرسول الذي غالباً ما يكون حاذقاً وخبيراً بالأمور , كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

فبعثنا مُجرَّباً ساكن الريـــ ـــح حفيفاً مُعاوداً بيطارا[٦٨]

وكثيراً ما يُشدد شاعر الغزل الأموي على صورة الرسول وابراز صفاته[٦٩] , لأنه على دراية كافية من أن مثل هذا الرسول سينجح في مهمته ولا سيما إذا ما كان الرسول شجاعاً وجريئاً , كما يتضح ذلك في عمر بن أبي ربيعة :

قُلتُ لما تَخَلّسَ الوجدُ عقلي لسُلَيمَى ادَّعي رَسُولاً مُريعاً[٧٠]

وبارع الحيلة , قادراً على تقليب الأمور بحسب وجوهها المختلفة , فيقول :

وجَرَى بيننا فَقَرَّبَ كُلاً حُوَّلٌ قُلَّبُ اللسان رفيقُ[٧١]

وقد يركن الشاعر الغزل الأموي إلى جانب السرد لإظهار قدرة الرسول وتمكنه من تغيير رأي المحبوبة من الضدية إلى الود والتقرب فتكون شخصية هذا الرسول قد نضجت واتضحت من خلال المشهد التصويري الذي اعتمده الشاعر في سرد الحديث , فيقول :

ليتَ شعري , يا بَكرُ , هل كان هذا , أم يراه الإلَهُ بالغيبَ رجمَـــــــا
قالَ : مَهلاً , فلا تظنَّنَّ هـــــذا , عَمرَكَ اللهُ ما قتلناهُ علمـــــــا
قلتُ : إذهب , ولا تلبَّث لشـــيءٍ , واستمع , واعــلم الذي كان نَمّـــا
فمضَى نحوها بعقلٍ وحَـــــــزمٍ واحتيال , ونُصــح حُبٍّ , فلمّـــا
جاءها , قالَ : ما الذي كانِ بعدي , حدِّثيني , فقد تَحَمَّلتِ إنمـــــــا
أصرمت الذي دعاه هواكـــــــم وبَرَى لحمهُ فلم يُبقِ لحمَـــــــا
فاستُفزَّت لقولهِ , ثـــم قالـــت لا وربي , يا بكرُ , ما كان مــما
قِيلَ حرفٌ , فلا تُرَاعَنَّ منـــــهُ , بل نرى وصلهُ , وربِّي , حتمــا
لعنَ الله من تَـــقَوَّلَ هـــــــذا , وثنى مَن وشي بلعنٍ , وهمَّـــا
ليسوءَ الصديق بالصرمِ مـــــنا زيدَ أنف العُداهِ بالوصالِ رغمـــا[٧٢]

قد أنشط البناء السردي الجانب التصويري مما أدى إلى تشغيل الصورة البصرية والسمعية كلتاهما معاً من

خلال إرساء دعائم الحوار بشكل يرضي ذهنية الملتقي , ويتسم الحوار بوظائف متعددة منها كشف عقليات أو ذهنيات الشخوص ونفسياتها ويحتوي أيضاً على قدرٍ كبير من المعلومات التي تؤهل المستمع لمعرفة الظرف أو الحدث السردي وتقديم موضوع الحدث ، فضلاً على كونه وسيلة لنقل كنه الصراع بين مختلف الشخوص(٧٣) ، فالحوار يكشف موقف المتكلم مع نفسه ، وموقفه مع الآخرين .

إذن جاء مجال السرد الذي اعتمده شاعر الغزل الأموي ملائما للتجربتين الموضوعية (صورة الرسول) والذاتية (نوازع الشاعر النفسية) ، وقادراً على احتضان ما هو حسي أو واقعي (الصفات الحسية التي يحملها الرسول ممتزجاً بالمخيلة (الصورة الشعرية ونشاطها التخيلي) ، بوصفها عاملاً مساعداً لإنضاج التجربة الشعرية ، وفضلاً عما يهيئه السرد من نمط إبداعي يوسع أُفق التجربة الشعرية فإنه يمكن أن ينتقل بالتجربة الشعورية من ذاتيتها إلى موضوعية مقبولة ومعقولة فيُصبح ((التلاحم بين الشعور والتفكير هو المُسَلمة الأولى لكل عمل فني ، سواء أكان شعراً أم سواه . فإذا كان الشعور ترجماناً مباشراً عن الذات فإن الفكر هو الإطار الموضوعي الذي يضم هذا الشعور))(٧٤) .

فأظهرت لنا الأبيات – الانفة الذكر – من خلال البناء السردي الدوافع والنتائج التي جادت بها عملية الإرسال , إذ اختار الشاعر رسولاً على معرفة به وهو (بكر) والذي يبدو أنه صديق للشاعر إنماز هذا الصديق بأن له القدرة على الاحتيال والعقل والحزم والصدق في النصيحة ولعلَّ هذه الصفات تكون دافعاً قوياً للشاعر لاختيار هذه الشخصية ، ثم يبدأ تشغيل الحوار (الذي هو جزء مهم من السرد) للوصول إلى النتائج المرضية التي بانت بشكل جلي في قوله: (فاستفزت لقوله...) وصولاً إلى نهاية الحدث السردي الذي غالباً ما يكون مأوى للشاعر في ادارج تجربته الشعورية باطار فني قابل للمراوغة فيه ولا سيما في الحوار , ولا يقتصر أمر اختيار الشاعر للرسول بهذا التأني والاطالة والسرد فقط انما يتعدى الأمر إلى المحبوبة التي هي أيضاً بدورها تقوم باختيار من تبعثه بصفات معينة فتنتقي الفتاة الحصان وعذبة المتبسم لا فحشَ في قولها أو فعلها(٧٥) .

وقد يَجمع الشاعر ما بين البصرية والشمية ولاسيما إذا ما كان واصفاً للرسالة التي تأتيه من المحبوبة , كما في قول عمر بن أبي ربيعة :

أتاني كتابٌ لم يرَ الناسُ مثلهُ أمدَّ بكافورٍ ومســـك وعنبرِ
كتابٌ بسُكٍّ حالك وبصفرة ومَسك صُـــهابي يُعلُّ بمجمر
وقرطاسهُ قُوهيَّةٌ ورباطُهُ بعقدٍ من الياقوتِ صافٍ وجوهرِ(٧٦)

والحقيقة ان تكثيف الحواس في هذه الصورة واضح من دون أدنى شك فقد دمج الشاعر الصورة اللونية البصرية (وبصفرة ومسك صهابي , وقرطاسه وقوهية ...) مع الشمية (أُمدَّ بكافور ومسك وعنبر , يعلُّ بمجمر) , فأتت عملية تآزر الحواس مع بعضها متناسقة ومتلائمة أوصلت الشاعر إلى النشاط التصويري الذي كثف فيه عدة دلالات اتضحت في هذه الابيات ؛ ليصل بنا إلى معنى حسي لا يخص الرسالة بل متعلق بالمرسِل (المحبوبة) فاستخدام هذه العطور للرسالة ما هو إلا دليل على أنها

(المحبوبة) تستعمل العطور بكثرة ، ومن ثم يندرج معنى آخر متعلق به هو المعنى المعنوي الذي دلَّ على ترف المحبوبة وتمكنها من شراء مثل هذه العطور الغالية الثمن , إذن الشاعر أراد ان يبين ما للمحبوبة من جمالية حسية ومعنوية (من خلال العملية المزجية للصورة الحسية) فعبر عن ذلك بانعكاس الدلالة الصورية من الرسالة إلى المرســـــِل

الخلاصـــة :

قد توصلت الدراسة إلى بعض الحقائق يمكن لنا ان نجملها وباختصار منها ما يخص المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظة الرسول إذ وجدنا انزياحاً في المفهوم من المعنى اللغوي وهو سير الابل المتتابعة بعضها بعد بعض إلى المعنى الاصطلاحي الذي يعني إرسال شخص بأمر من المرسِل ليقوم بأداء الرسالة سواء أكانت تسليماً أم قبضاً , أما المحور الثاني فقد كشف عن أهمية الرسول في شعر الغزل الأموي المتأتية من كونه يمثل حلقة الوصل بين الشاعر ومحبوبته , فهو الخيط الذي يربط الشاعر بأمانيه وآماله التي يرتجيها , إذ يهيأ الرسول عملية التواصل من خلال قيامه بالتبليغات التي تنعش غرض الغزل بمغذيات اللقاء والتقارب والتواصل والتصافي بين الشاعر ومحبوبته الذي استطاع ان يُأطر هذه الأهمية باطار فني حوى تجربته الشعورية بكل معطياتها النفسية ونوازعها الداخلية .

أما المحور الثالث فقد كان مخصصاً لتبيان دور الرسول في عملية التراسل , إذ كان دوره دقيقاً جداً يتجه باتجاهات مختلفة أولها إيصال أخبار المرسِل إلى المرُسَل إليه وهذا التوجيه يكون إما من الشاعر إلى المحبوبة أو العكس , وقد كشف البحث عن هذه الأدوار من خلال استقراء النماذج الشعرية فهناك دوره التحذيري الذي يحذر فيه الشاعر من المجيء أو مما أُعدَّ له من أهل المحبوبة أو من أعدائه, فضلاً عن دوره في ضرب موعداً للقاء الشاعر بالمحبوبة وهذا ما أسميناه بالدور الايجابي , وبالمقابل هناك الدور السلبي الذي يقوم به الرسول إذ يأتي فيبلّغ برحيل المحبوبة او يحاول التفريق بين الشاعر ومحبوبته من خلال نقله كلاماً زوراً وباطلاً عن الشاعر وما إلى ذلك , وقد جاءت النصوص الشعرية متنوعة وملمة بهذه الأدوار جميعاً وأظهرت إمكانية شاعر الغزل الأموي وقدرته على تشغيل نتاجه الأدبي بما يخدم انتقالاته الشعورية .

أما المحور الرابع فهو التشكيل الصوري للرسول في شعر الغزل الأموي , وقد ركز على صورة الرسول (المرأة) وهي في الغالب من تقوم بعملية الإرسال , وصورة الرسول (الرجل) , ومن الطبيعي أن يكون لكل منها صفات معينة قد التقطها شاعر الغزل ليبثها في غزله بصور شعرية متنوعة منها : البصرية , والسمعية , والشمية , ... الخ , وقد تناول البحث هذه الصفات بالتفصيل .

الهوامـــش :

(١) تهذيب اللغة : مادة (رسل) .

(٢) لسان العرب : مادة (رسل) , البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين , ص١١٣ ؛ وصدره : لو كان في قلبي كقدر قُلامة .

(٣) ينظر : كتاب التعريفات : ١٨٥ .

(٤) شرح ديوانه : ٦٤ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٧٤ .

(٦) المصدر نفسه : ٣٥٧ .

(٧) المصدر نفسه : ٤٧ .

(٨) ديوانه : ٢١٤ .

(٩) ينظر : شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٢٧٤ , ٢٩٧ , ٢٩٨ , ٢٦٣ , ٣١٨ , ٣٩٧ , ٤٠١ , ٤٠٧ , ٣٥٠ .

(١٠) ينظر : شعر الاحوص بن محمد الانصاري : ٢٣١ ؛ وشرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١١٢ , ٣٥٠ .

(١١) ديوانه : ٤٢٠ .

(١٢) شرح ديوانه : ٤١٤ .

(١٣) ينظر : شعر يزيد بن الطثرية : ٢٢ , ٨٩ ؛ وديوان جميل بثينة : ١٦٤ ؛ وشرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٩٩ , ١٣٩ , ٢٤٢ , ٢٥٣ , ٢٦٣ , ٤١٥ ؛ وديوان العرجي : ٧٩ .

(١٤) ديوانه : ١٠٩ .

(١٥) شرح ديوانه : ٢٥٢ .

(١٦) ديوانه : ٥٢ ؛ في سراح : في سهولة .

(١٧) المصدر نفسه : ٢٠٨ .

(١٨) المصدر نفسه : ١٥٩ .

(١٩) المصدر نفسه : ١٨٠ .

(٢٠) طوق الحمامة : ١٢٣ .

(٢١) ديوانه : ٣٦ ؛ المجرم ((بالتشديد)) التام الكامل , التعرم : البطر والأشر .

(٢٢) شرح ديوانه : ١٨٦ .

(٢٣) المصدر نفسه : ٢٠٢ .

(٢٤) المصدر نفسه : ٤١٢ ؛ وهناً : هنا بمعنى الهزيع الاخير من الليل .

(٢٥) المصدر نفسه : ٣٤٥ .

(٢٦) قيس ولبنى شعر ودراسة : ١١٦ .

(٢٧) شعر نصيب بن رباح : ٦٠ ؛ نُكب : ميل وانحراف , شعب : التئام .

(٢٨) المصدر نفسه : ٦١ ؛ يتقضب : ينقطع , الرقبة : المحافظة والانتظار .

(٢٩) ديوانه : ٢٣٩ .

(٣٠) ديوانه : ٨٣ ؛ تجن , تخفي .

(٣١) ينظر : شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٣٦٧ .

(٣٢) المصدر نفسه : ٧٢ ؛ لم يعتب : لم يرضَ .

(٣٣) ينظر ديوان العرجي : ١٠٣ , ١٩٠ ؛ وشرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٠٨ , ٢١٠ .

(٣٤) شرح ديوانه : ٣٦٠ ؛ المعنى : كابد الحب فأصابه منه عناء , أي تعب شديد وجهد , نموم : مبالغة نمَّ , أي نقل الكلام على جهة الإفساد .

(٣٥) المصدر نفسه : ٤٦ ؛ الكلال : الإعياء .

(٣٦) ديوانه : ٤٥٢ .

(٣٧) ديوانه : ٢٠١ .

(٣٨) شرح ديوانه : ٣٦٠ , ٣٦١ , المرط : الثوب غير المخيط .

(٣٩) اتجاهات الشعر في العصر الأموي : ٣٦٨ .

(٤٠) ينظر على سبيل المثال : ديوان العرجي : ٨٥ .

(٤١) ديوانه : ٦٨ ؛ خرق الرجل : إذا بقى متحيراً من هم أو شدة .

(٤٢) المصدر نفسه : ٧٨ .

(٤٣) ينظر : شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٦٦ , ٢٧٣ .

(٤٤) ديوانه : ١٢ .

(٤٥) ديوانه : ١٣٩ .

(٤٦) تهذيب اللغة مادة (بعث) .

(٤٧) أساس البلاغة : ٢١٩ .

(٤٨) شرح ديوانه : ١٣٤ ؛ الفرق : الخائف وينظر قوله : ١٦١ .

(٤٩) المصدر نفسه : ١٣٥ .

(٥٠) شعر يزيد بن الطثرية : ٥٢ .

(٥١) ينظر : شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٠٥ , ١٠٧ , ٢٢٩ , ٢٦٧ , ٣٧٩ ؛ وديوان العرجي : ٦٣ .

(٥٢) شرح ديوانه ٩٧ ، ذا مله : ذا ملال وسأم ، الطرِف : الذي لا يثبت على صحبة أحد ، وينظر قول العرجي في ديوانه : ١٠٨ .

(٥٣) ينظر : على سبيل المثال : ديوان العرجي : ٦٣ ، وشرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٤٦ ، ٢٦٦ .

(٥٤) شرح ديوانه : ٣٤٧ .

(٥٥) ينظر : ديوان الأحوص : ٧١ ، وشرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٧٥ ، ٩٦ ، ١٥٥ ، وديوان العرجي : ١٠٠ .

(٥٦) شرح ديوانه : ٣٨ ، موهناً : ليلاً ، وانقلب ، أي رجع ، شبّه القول عليها : احتال فيه وغيّر.

(٥٧) المصدر نفسه : ٣٨١ ، يا بشرة : اسم امرأة مرخم .

(٥٨) المصدر نفسه : ٢١٣ ، الجريّ : الرسول ، لم أذكر الأبيات كلها لطولها تُنظر كاملة في الصفحة ذاتها .

(٥٩) ينظر : المصدر نفسه : ٢٣٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٨ .

(٦٠) المصدر نفسه : ٣٣٤ .

(٦١) ديوانه : ١٥٢ –١٥٣ ، الطبّة : الحاذقة الماهرة بصنعتها ، المحمل : المستودع الأمين ، تأطرت : تثنت ، القنا : العذق من النخل ، وعرقه : أصله ، وهو العرجون ، المتذلل : اللين المرن ، الفرط ، لا يكون إلا بعد أيام لا تزيد على

خمسة عشر يوماً ، ولا تقل عن ثلاثة أيام ، وأراد هنا الليالي لتذكيره العدد ، الخوخة : باب صغير خلف الدار غير الباب الكبير .

(٦٢) شرح ديوانه : ٣٨-٣٩ ، تأنَّاها : طلب منها التأني .

(٦٣) ينظر : المصدر نفسه ، الابيات في صفحة ٣٨ .

(٦٤) معجم مقاييس اللغة : ٢٦٦/١ .

(٦٥) ديوانه : ٨٥ ، الشناع : جمع شنعة وهي الفضيحة .

(٦٦) المصدر نفسه : ٢ ، الثقف : الحاذق الفهم ، واسقط في كلامه : اخطأ ، والنساءة : كثير النسيان ، الهدء : ابتداء سكون الليل .

(٦٧) شرح ديوانه : ٣٦ ، خراجة من بابها : أي انها حاذقة بمعرفة الامور ، فرقت : من رقى يرقي رقية ، والمعارض : أمكنة العَرض وهنا معارض وجهها .

(٦٨) شرح ديوانه : ١٥٧ ، البيطار : الخبير الحاذق بالامور .

(٦٩) ينظر : المصدر نفسه : ١٦٤ ، ٢٤٤ .

(٧٠) المصدر نفسه : ٢٣٠ ، المريع : الجريء الشجاع .

(٧١) المصدر نفسه : ٢٥٢ ، حُوَّل : بارع الحيلة ، وقُلَّب اللسان : قادر على تقليب الامور بحسب وجوهها المختلفة .

(٧٢) المصدر نفسه : ٣٥٣ .

(٧٣) ينظر : النقد التطبيقي التحليلي : ١٣٠ .

(٧٤) الشعر العربي المعاصر : ٢٨٠-٢٨١ .

(٧٥) ينظر : المصدر نفسه : ٣٠٠ ، ٣٢٥ .

(٧٦) المصدر نفسه : ٢٠٢ ، صهابي : فيه حمرة أو شقرة ، المجمر : البخور ، القوهية : القطعة من الثوب الأبيض .

المصادر والمراجع

١. اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، د. صلاح الدين الهادي ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ، ط١ ، ١٤٠٧ه/ ١٩٨٦م .

٢. أساس البلاغة ، تأليف الامام الكبير جار الله ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨ه) ، دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٢ه/ ٢٠٠١م .

٣. تهذيب اللغة ، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠ه) ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، راجعه : محمد علي النجار ، دار الصادق للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤م .

٤. ديوان جميل شاعر الحب العذري ، تحقيق : د. حسين نصار ، الناشر مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، د.ت .

٥. ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح : د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، د. ت .

٦. ديوان العرجي ، رواية أبي الفتح الشيخ عثمان بن جني (ت٣٩٢ه) ، شرحه وحققه خضر الطائي ورشيد العبيدي ، الشركة الاسلامية للطباعة والنشر المحدودة ، بغداد ، ط١ ، ١٣٧٥ه/١٩٥٦م .

٧. ديوان كثير عزة ، تحقيق : د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧١م .

٨. ديوان مجنون ليلى ، تحقيق : عبدالستار أحمد فرّاج ، الناشر مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، د. ت .

٩. شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة (٩٣ه) ، شرحه وقدم له عبد أ . علي مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

١٠. شعر الأحوص بن محمد الانصاري ، جمع وتحقيق : د. ابراهيم السامرائي ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٣٨٨ه/١٩٦٩م .

١١. شعر نصيب بن رباح ، تح : د. داود سلوم ، نشر جامعة بغداد ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦٧ .
١٢. شعر يزيد بن الطثرية ، صنعة حاتم صالح الضامن ، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع ، ساعدت وزارة الاعلام على نشره ، مطبع أسعد ، بغداد ، د.ت .
١٣. طوق الحمامة في الإلفة والأُلاف ، ابن حزم الظاهري الأندلسي (ت٤٥٦ه) ، اعتنى به وقدم له عبدالرحمن المصطاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٣م .
١٤. قيس ولبنى شعر ودراسة ، تحقيق : د. حسين نصار ، الناشر مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، د.ت .
١٥. كتاب التعريفات ، للعلامة علي بن محمد بن علي بن الحسيني الجرجاني الحنفي (ت٨١٦ه) ، حققه وعلق عليه نصر الدين تونسي ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٧م .
١٦. لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١ه) ، طبع ونشر وتوزيع دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٣ه/٢٠٠٣م .
١٧. معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥ه) ، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون ، دار الكتب العلمية ، د.ت .
١٨. النقد التطبيقي التحليلي ، د. عدنان خالد عبدالله ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية – بغداد ، ط١ ، ١٩٨٦م .